الكاتب الافرنسي على ان النفع اذا لم يحصل ممن بلغ الرشد فاحر به ان لا يحصل أصلا وحصول النفع الحقيقي من ثمرات أعمال الكاتب قد لايكون في الثلاثين ولا في الاربعين من عمره ولذلك قيل

اذا بلغ الفتى عشرين عاماً ولم يفخر فليس له افتخار

الجنون بالكتب

الغالب ان عشاق الكتب كعشاق الجمال أو هم أضل سبيلا ، فتراهم هائمين خاملين لا يعون على شيء في الارض ولا يحفلون بعظائم الأمور فضلا عن صغارها ، يجعلون الكتب روحهم وراحهم وريحانهم ، بل فروضهم ونوافلهم وأحاديثهم وأشغالهم . وكل شيء اذا جاوز الحد انقلب الى الضد . وكذلك الحال بعاشق الاسفار فربما جوز لنفسه السرقة ولكن سرقة الكتب بل وربما أفتى بحل ذلك لمن يستفتيه . ولقد قرأت فصلا لاحد كتاب الفرنجة فآثرت تلخيصه كما يلي : أقر أحد عشاق الكتب يوماً في انكلترا عن نفسه واسمه ديبدن (١٧٧٦ – ١٨٤٧) انه هم يوماً ان يسرق وحمد الله على ان خلا بنفسه في خزانة كتب ستراسبورغ ولم تحدثه نفسه بسرقة كتاب منها . وكان خطر على بال رجلين في انكلترا ان يطبعا لانفسهما خاصة كتاباً يكون آية في طبعه ووضه وصوره وورقه وتجليده ولم يطبعا منه غير نسختين . فما كان الا كلا ولا حتى حدثت أحدهما نفسه بان يذهب الى دار صاحبه ويستأثر دونه بالنسخة فيسرق بعض صورها حتى تكون نسخته هي التي يرجع اليها فراح في غياب صاحبه الى زوجه وطلب اليها ان تريه النسخة لغرض بدا له فدفعتها اليه وجعل يقلبها مهتماً بأمرها ثم استغفلها

فمزق بعض صور الكتاب وجعلها في جيبه وانصرف فلما عاد صاحبه ارتاب في مجيء صاحبه وتلب أوراق الكتاب فرأى مافعله فرفع عليه قضية حكمت له فيها جمعية الكتب بألفي جنيه تعويضاً .

وقد راودت أحد هؤلاء الغلاة يوماً نفسه ان يحرق مكتبته بعد ان زار مكتبة الدوك دومال ابن لويز فيليب أخد ملوك فرنسا المتوفى سنة ١٨٩٧ اذ مزق الحسد والطمع والغيرة احشاء ذاك الرجل . بيد ان العريق في محبة الكتب الحقيقي هو محب الآداب أيضاً وعضد المعارف فيغتبط اذا ظفر غيره بكتب لم يسعده الحظ بمثلها ويأمل ان يكون من ورائها مغنم كبير للمطالعين والدارسين .

ومن غرائب هؤلاء العشاق غليوم بودي (١٤٦٧ — ١٥٤٠) قال إنه اغتنم الفرصة يوم عرسه فمر بكتبه قبل ان يبني بعرسه ومع هذا رزق بنين وبنات وهو الذي يروى عنه ان خادمه جاءه يوماً وهو يلهث فقال ان لسان اللهيب أخذ يندلع على البيت وكان امام كتبه بالطبع فاجابه قل لزوجي وهلا تعرف انني لاأتداخل في أمور المنزل .

وأغرب من هذا ما أجراه أدرين تورنيب من مشاهير اليونان واحد فلاسفة القرن السادس عشر (١٥١٢ — ١٥٦٥) فانه نسي يوم عرسه الذي يقضى عليه بان يجتمع في يومه بالناس . وكذلك كان من أمر فردريك مورل لجون من علماء فرنسا المشتغلين وكان يبحث في اخبار ليبانيوس السفسطائي اليوناني فجاء رسول يقول له ان زوجته تريد ان تكلمه بضع كلمات وكان يحبها حباً جماً فقال له دعني الآن انظر هاتين الكلمتين لكن المهلة التي طلبها طالت واستبطرت فبعثت اليه برسول آخر قال له ان زوجك

كادت تفارق الحياة فحوقل وامتدح منها وردد بعض مآثرها وسيرتها الصالحة وعاد يغوص في بحر كتبه .

ومات القس كوجي (١٦٩٧ — ١٧٦٧) حزناً لانه أكره على بيع كتبه . ويروى مثل ذلك عن سكاليجر العالم الطلياني المتوفى سنة ١٥٥٨ وبارو الفقيه الفرنسوي المتوفى سنة ١٦٨١ فقد قال الاول إن رمت أن تصاب باعظم خطوب الارض فبع كتبك تلق الشقاء ومن رام أن يجمع على رأسه ضروب البلايا صفقة واحدة فما عليه إلا أن يبيع كتبه . ورأى يعقوب غوبيل (١٥٦٤) من مشاهير فرنسا مكتبته نهب أيدي الضياع والسلب في فتنة عصابات الكاثوليك فمات يائساً بائساً . وحزن العالم الكتبي كولنه دورافل الفرنسوي حزناً ولا حزن يعقوب على يوسف لما رأى كتب الابرشية تطفو على نهر السين وكان يقدر قيمتها حق قدرها لانه رتبها وبوبها .

واضطرت الحاجة اللغويّ برونك من ستراسبورغ(١٧٢٩—١٨٠٣) أن يبيع جانباً من مكتبته واشتد حزنه عليها حتى كان اذا ذكر أمامه مؤلف اقتناه وباعه في جملة ماأباعه تنحدر عبراته على خديه طوعاً كرهاً . واضطر الامير كاميراتا في القرن التاسع عشر ان يبيع اسفاره في المزاد العلني ولم تكد توزع على مبتاعيها حتى انتحر بيده وقال بيدي لا بيد عمرو . ويقرب من ذلك مافعله الكونت لا بيدوير فانه توهم ان كتبه اتعبته فباعها فما هو الا يوم وليلة حتى عاد يشتريها ثانية بكل مرتخص وغال فاشبه في حاله ولداً مبذراً غادر بيت أبيه

وحدث ان أحد الاميركيين المستر بريان وهب احدى المكاتب

مجاميع نفيسة من روايات نادرة فلم تمض أيام حتى عاد الى قيم المكتبة يطلب اليه ان يرى كتبه فاخذ يحدق بها ويصوب في جلودها ويصعد فظن القيم ان صاحبه ينوي ان يسترجع ماوهب ولكن راح المسكين فانتحر بعد يومين وعزّ عليه ان يفعل فعلته قبل ان يودع محبوباته قديماً ويرعى لهن ذمامهن . ومات المركيز شالابر في القرن التاسع عشر قانطاً مخفقاً لكونه لم يتمكن من ابتياع نسخة من التوراة ثمينة . قيل إنه كان في محفظة جعلت في جلدها أوراق مالية بأربعين الف فرنك فعثر عليها الكتبي لما اشتراها من صاحبتها فاعادها اليها . وقضى بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) في مجلسه ولما استبطأه أصحابه أطلوا عليه فوجدوه ميتاً والكتاب في حجره . وكذلك مات الصحافي ارمندبرتين (١٨٠١ — ١٨٥٤) مدير جريدة الديبا وكان له مجاميع من أجمل القنيات والكنوز ذكروا انه مات بين كتبه عقيب وفاة حليلته فوجدوه ماسكاً بكتاب كانت هي تحبه في حياتها فجاءه الموت وهو على هذه الحال

ومات المؤلف يعقوب برونه (١٧٨٠ — ١٨٦٧) وهو على كرسيه وبين كتبه بعد ان عمر طويلا ولا شغل له غير الدرس والتبحر . وقضى الجماعة موبللي منذ نحو نصف قرن وكانت مكتبته تساوي مئة الف فرنك ولم يوجد عنده من الدراهم مايكفي نفقات دفنه . ومن عشاق الكتب من سقطوا عن سلالم مكاتبهم فقضوا نحبهم ومنهم ايبرت (١٧٩١ — ١٨٣٤) من غلاة الكتب في درسد والمركيز مورانت (١٨٠٨ — ١٨٦٨) الاسباني وروفرو غيرهم . والمؤرخ الكاتب تيودور مومسان الالماني (١٨١٧ — ١٩٠٣) ذهب الى خزانة كتبه ذات يوم والشمعة بيده فسرى لهيبها الى لحيته البيضاء وقضى بعد شهر متأثراً

وأعجوبة المولعين بالاسفار انطون ماكليابيشي (١٦٣٣ ـ ١٧١٤) من مدينة فلورنسا فقد خدم لاول أمره في دكان فاكهانية وأخذ ينظر في الأوراق التي تصر بها الفاكهة فوقع في نفسه ان يتعلم القراءة فاتصل بكتبي ولم يعدم من يدرسه ويعلمه وكان ذا ذاكرة قوية ماحفظ شيئاً ونسيه وحفظ من اسماء الكتب ومظانها حتى اصبح عبارة عن مكتبة سيارة ثم اتصل بالغراندوق كوسم الثالث وجعله قيماً على كتبه ولم تكن هذه الكتب لتشفي مطامعه بل أخذ يطالع فهارس المكاتب الأوربية مطبوعها ومخطوطها ويسأل كبار العلماء السياح عن نوادرها حتى صار يعرف كل دقيق وجليل من أحوال الكتب وكانت له طريقة غريبة في المطالعة فاذا اخذ كتاباً لم يكن طالعه من قبل ينظر في اسمه وفهرسته ومقدمته وتقديمه ويتصفح اوائل فصوله وبعد دقائق يقول لك رأيه في موضوع الكتاب والمصادر التي أخذ منها مؤلفه ولا ينسى ذلك على الدهر . ولم تكن له عناية بهندامه ونظام معيشته بل كان في ليله ونهاره مستغرقاً في أسفاره لايخرج الا إلى مكتبته . وكان أعلى بيته واسفله ومدخله وحجره ونوافذه كلها ملأى بالكتب . وهو غريب في خموله حتى كان يأكل في الغالب بيضاً وخبزاً و ماء ـ والخبز والماء أكل العلماء كما قيل ـ ولطالما سرق له خدامه وخدام جيرانه دراهم من خزانة بقربه كان يضع فيها البيض والدراهم معاً وقد أراده البابا والملك ان يتمثل بين ايديهما فتجاهل ماأمرا به وعاش على كسله احدى وثمانين سنة واوصى بمكتبته لبلده وكانت تبلغ ثلاثين الف مجلد وجعل لها مورداً تعيش به وما زالت معروفة به الى الآن .